التراث عند طه حسين

أ. د. حسين نصار(*)

التراث كلمة عربية أصيلة، يقول المعجم اللغوي عنها: إنها مبدلة من إراث، المبدلة من وراث. ويفسرها بأنها تطلق على كل ما خلَّفه لنا السابقون علينا ووصل إلينا، غير أننا اعتدنا في حياتنا الفكرية أن نطلقها على ما خلف السابقون من فكر وعلم وفن وقيم، وكثيرًا ما لا نريد إلا الآداب والفنون والمأثورات الشعبية.

ونجد آثار هذه المدلات في إنتاج د. طه حسين، غير أن بعض الفروع تختفي ويبرز بعضها الآخر كالأدب والفلسفة بروزًا يكاد يغطي على غيره ويخفيه.

وتكشف ثقافة طه حسين أنه غاص في أغوار الثقافة العربية قديمها وحديثها، وخاصة في أنواع الثقافة الإغريقية (اليونانية القديمة) واللاتينية (الرومانية) والفرنسية وتعرَّف ما حملته هذه الثقافات من غيرها.

ولما كان التراث العربي بعيد المدى طويل العمر، فقد تعاورته الأحداث فسمت به أطوار إلى أعلى القمم، وانحطت به أطوار إلى القيعان وأقرب ما يكون إليها؛ ومن ثم اختلف أبناؤه - أي نحن - في النظر إليه اختلافًا كبيرًا. بل انشطروا قسمين: قسمًا يكاد يقدسه ويدعو إلى الحرص عليه والتمسك به، وعدم الخروج عن شيء منه؛ وقسمًا يرفضه ويدعو إلى طرحه كما يطرح كل ما يفقد الحياة والفائدة.

ويضيف د. طه إلى ذلك ما حدث للذوق العربي من تغير بسبب شدة الاتصالات بيننا وبين الأقطار الأوربية والحياة المادية والفكرية والأدبية والفنية والعلمية فيها.

وأعلن في أثناء نقده لإحدى قصائد أحمد شوقي عن ذوق المصريين المحدثين أنه ذوق معقد، فيه أثر الأدب العربي القديم، وأثر الأدب الغربي الحديث؛ وأن الشعر العربي القديم يلائم ذوق العرب في عصره، ويصور المثل الأعلى لهم فهو جميل. وهو يعجب المصريين ويرضيهم فيمثل لهم حظًا من هذا المثل الأعلى (حافظ ٣٧- ٣٩).

وصرح أنه لا يحب أن يظل الأدب القديم في هذه الأيام كما كان من قبل؛ لأننا نحب القديم من حيث هو قديم ونصبو إليه متأثرين بعواطف الشوق والحنين؛ وإنما نحب لأدبنا القديم أن يظل كما كان - لأنه أساس الثقافة العربية - ضرورة من ضروريات

(*) أستاذ كرسي الأدب المصري - كلية الآداب - جامعة القاهرة.

الحياة العقلية قوامًا للثقافة وغذاء للعقول والقلوب، فهو يعد الأدب القديم دون شك ولا مراء: مقومًا لشخصيتنا، محققًا لقوميتنا، عاصمًا لنا من الفناء في الأجنبيين، معينًا لنا على أن نعرف أنفسنا.

ويحب ذلك لأن هذا الأدب صالح ليكون أساسًا من أسس الثقافة الحديثة؛ لأن فيه كنوزًا قيمة تصلح غذاء لعقول الشباب (حديث الأربعاء ١: ١٣).

وأعلن عن وجود شعر قديم ما زال يترقرق فيه ماء الحياة، وأشار إلى أن المعلقة التي تُعزى إلى الشاعر المخضرم لبيد خشنة الملمس، غليظة اللفظ، بعيدة عن مألوفنا، ولكنه - مع ذلك - يجد فيها شعرًا قويًا غنيًا خصبًا ممتعًا خليقًا بالإعجاب والإكبار، خليقًا أن يثير في نفوسنا عاطفة قلما تثيرها فينا خطوب حياتنا المتحضرة التي تشغلنا بالعاجل من الأمر.

ووصف شاعرها بأنه يسلك إلى تصوير عواطفه فيها نفس العواطف التي يسلكها الشعراء المحدثون، طريق التصوير القوي المؤثر الذي يؤثر في نفسك الإعجاب؛ لأنه يؤثر في عقلك وشعورك معًا. (حديث الأربعاء ١٨ - ١٩).

وختم تحليله لها بقوله يخاطب القارئ: أظنك موافقني على أن مثل هذا الشعر الذي يعرض مثل هذه الصور، ويثير مثل هذا الخيال، ويحيي في النفس مثل هذه العواطف، لا ينبغي له أن يهمل، ولا أن يصرف عنه الشباب، ولست أريد أن يفرغ له الشباب ويتخصصوا فيه، ولكني أريد أن يعرفه الشباب وأن يحسنوا العلم بأغراضه ومعانيه. وأنا واثق أنه لن يكون أقل إلهامًا لهم وإحياءً لنفوسهم من الأدب الحديث (حديث الأربعاء ١: ٢٦ - ٢٧).

وختم د. طه حسين حديثه بتكرار ما سبق أن قاله من أن الأدب العربي شعره ونثره وعلمه وفلسفته لا يمكن بحال من الأحوال أن يقل عن الآداب الأربعة القديمة، بل هو - من غير شك - متقدم على اللاتيني والفارسي - وإذا لم يكن بد من أن يكون له مناظر فهو الأدب اليوناني الذي ينحني له الأدب العربي، مع شيء من الإجلال الذي تملؤه العزة.

ويكفي أن نلاحظ أن الأدب العربي هو الأدب الذي عاشت عليه كل الأمم العربية. وهو الأدب الذي حمل لواء العلم والعقل طول القرون الوسطى. ويكفي أن نلاحظ أن النهضة الأولى التي ظهرت في القرن الثاني عشر في أوربة إنما هي نتيجة لاتصال أوربة بالعرب. فأدبنا هو الذي أحيا العقل الأوربي، حتى جاءت النهضة الثانية التي

اتصل فيها الأدب الأوربي بالأدب اليوناني القديم.

فلو لم يكن للأدب العربي إلا أنه قد حمل لواء الأدب والعقل الإنسانيين في عشرة قرون، لكان هذا كافيًا للاعتراف بأن هذا الأدب من الآداب التي تعتز بنفسها وتستطيع أن تثبت لصروف الزمان.

أما إذا ذكر الأدب الحديث، فليس عندنا إلا الأمل. وكل شيء يدل على أن زمنا قصيرًا لن يمضي حتى يستطيع أن يثبت للآداب الأجنبية كما ثبت لها أدبنا القديم (من حديث الشعر والنثر ١٧ - ١٩).

وليس المهم أن يصدق الشعراء أو يكذبوا، بالقياس إلى الذين يمدحونهم ... وإنما المهم أن يصدق الشعراء في تصوير المثل العليا فيما ينشئون من مدح وثناء، لأن المادحين والممدوحين يذهبون وتبلى أشخاصهم، ولكن المثل العليا التي يصدقون في تصويرها تبقى للناس ما بقي الناس.

وهذا هو معنى ما يقال من أن الأدب الصحيح الجدير بهذا الاسم خالد مهما يُصيب أصحابه وبيئاتهم من الخطوب وأحداث الزمان. وهذا هو السر في أن التراث الأدبي والفني عزيز على الإنسانية المثقفة؛ لأنه يصدر لها الجمال، والجمال خالد لا يدركه الفناء.

وما أظن هؤلاء السادة يريدون أن يلغوا ... آثار أصحاب الفن الخالدين من أصحاب التصوير والنقش والعمارة؛ لأن هذه الآثار قد أنشئت لملك أو أميرًا أو شريف من أصحاب الإقطاع.

فقد ذهب هؤلاء جميعًا، وذهب معهم الذين أنشئت لهم هذه الآثار، وبقيت هذه الآثار تراثًا خالدًا نحوطه كلنا بما نملك من القوى والجهود، ويحرص عليه منا الذين يحبون القديم، والذين يدعون إلى التجديد. (خصام ٥١ - ٥٢).

فالعلم والفن والمعرفة - على اختلاف موضوعاتها - كنوز لا ينقص منها انتفاع الناس بها، وتهالكهم عليها ... وإنما يزيدها ذلك خصبًا إلى خصب، وثراء إلى ثراء. ولو لم يقرأ القدماء ويدرسوا لما أنتج المحدثون شيئًا من علم أو فن. ولو لم يظهر بعض المحدثين على آثار بعض لما ازدهر العلم، ولا تأنق جمال الفن، ولا عظم تراث الإنسانية من المعرفة.

فهذه كنوز يزيد فيها الأخذ منها، وينقصها الإهمال لها والإعراض عنها أو قل إنها

تحيا بالإقبال عليها، وتموت بالزهد فيها. (خصام ١٦٦).

وأشار د. طه إلى أن حياة القدماء كلها ملك التاريخ، وكلها نافع للمؤرخ والأديب بل واجب عليهما. ومن الإثم وتعمد الجهل أن نتكلف بإخفاء ناحية من النواحي الأدبية، ربما كانت أحق من غيرها بالدراسة وليس بمقدور العلم وكرامته أن يغير التاريخ، أو أن يظهر عصرًا من عصور الأمة على غير ما كان عليه. وصرح أن لمقالاته نتيجتين قيمتين:

الأولى: أنها جلته ناحية من نواحي تاريخ الأدب العربي لم تكن واضحة.

والأخرى: أن فيها ضربًا من مناهج البحث، حسب أن الأدباء ولو فهموه لاستطاعوا أن يستغلوا الكنوز القيمة التي لا تزال مجهولة، والتي نشأ من جهل الناس بها إياها - غضبهم من الأدب العربي وانصرافهم في أفقه وازدراء. (حديث الأربعاء ١: ٧ - ٨).

وكتب في (قادة الفكر) في مناسبة أحد الكتب المتعاقبة التي تتصدى لتاريخ اليوناني، قال: إن هذا الكتاب ليس أول كتاب ظهر في هذا الموضوع، ولن يكون آخر كتاب: لأن الأوربيين يتخذون قاعدة قانونًا لهم، تقول: ليس إلى فهم الحياة الحديثة - على اختلاف وجوهها - من سبيل إلا إذا فُهمت مصادرها الأولى التي هي الحياة اليونانية.

ثم دعا المصريين إلى أن نسلك سبيلهم في فهم حياتنا التي استعرناها منهم في جميع فروع الحياة ونعدل من حياتنا القديمة عدولا يوشك أن يكون تامًا. (٥١ - ٥٢).

واستدل على رأيه بأفلاطون الذي يرى أنه لم يخترع فنه الأدبي اختراعًا، وإنما تأثر فيه بألوان الشعر اليوناني الثلاثة الموجودة، ولم يخترع فلسفته اختراعًا، وإنما تأثر فيها بالمذاهب الفلسفية المختلفة التي سبقته وعاصرته، غير أن هذا التأثر لم يضطره إلى التقليد، ولم يضعف من شخصيته. وإنما قوَّى هذه الشخصية تقوية عظيمة.

وختم د. طه هذا الاستدلال بالقاعدة التي تعلن:

أين هو هذا النابغة الذي يخترع شيئًا من لا شيء، ويُحدث أحداثًا لا تتصل بما قبلها وحولها؟!. (قادة ١٣٤ - ١٣٥).

وانتقل د. طه إلى تعديد الصعاب والعقبات التي لا بد أن يواجهها من يطالع الأدب القديم، ولا يجد إلى تذليلها من سبيل، وهي:

١- الألفاظ الضخمة التي تنبو عنها أذن القارئ وتستغلق معانيها عليه.

٢- اضطراب شروح الشعر العربي القديم والمعاجم، وشدة اختلاطها، وكثرة

استطرادها، وإذا فهمها ليس أدنى إليه ولا أيسر عليه من فهم النص الشعري.

٣- عدم نفع كتب المحدثين التي لجأ إليها لتقرب إليه هذا الأدب النافر الجامح.

٤- فرض هذا الأدب القديم في المدرسة بحيث حمَّله من المشقة ما لا يطيق، وبغَّض إليه المدرسة.

٥- فتنة الناس بالسهل القريب، وكراهيتهم الجهد والتعب.

٦- وإغراء الحضارة الحديثة بهذا. وهم يجدون في الأدب الأجنبي الحديث ما يرضيهم. إن أرادوا اللذة الفنية ظفروا بها، وإن أرادوا اللهو انتهوا إليه، وإن أرادوا إنفاق الوقت لم يجدوا في ذلك جهدًا ولا عناء.

امتلاك الحضارة الحديثة من الوسائل ما لا يملكه الأدب القديم، على الرغم من ... الجهود التي بذلت في العصر الحديث لإحيائه لا بأس بها. فهي تسعى إلينا وتبلغنا من كل وجه، وتلحّ علينا في جميع أطوار حياتنا، وإنتاجها الأدبي لا ينقطع. (حديث الأربعاء ١: ٩ - ١٣)

وصوَّر الأدب القديم بحديقة، طال عليها الزمن، وأهملت دون أن تقطع عنها مادة الحياة، فمضت أشجارها وشجيراتها في غير نظام حتى اختلط أمرها اختلاطًا شديدًا، وأصبح من العسير على مرتادوها أن يجدوا فيها سبيلا إلى ما يحبون من النزهة والراحة إلى الجمال. (حديث الأربعاء ١: ١٥ - ١٦).

فليس يقرؤه إلا الذين أنتجت لهم ثقافة واسعة عميقة في الأدب العربي القديم. وإنما يقرأ الناس اليوم ما يكتب لهم المعاصرون في الأدب الحديث بلغتهم، فقراءة الأدب القديم عسيرة، وفهمه أعسر، وتذوقه أشد عسرًا. ثم تساءل على وجه الإنكار، وأين القارئ الذي يطمئن إلى: قراءة الأسانيد المطولة، والأخبار التي يلتوي بها الاستطراد، وتجور بها لغتنا القديمة القريبة عن سبيل الفهم السهل والذوق الهين الذي لا يكلف مشقة. (على هامش السيرة).

ألقى د. طه لمحة سريعة في (حديث الأربعاء)على طريقته في التعامل مع مادته. فصرح أنه لم يكن بد لكتابتها من أن يتجنب التعميم في البحث والإلحاح في التحقيق العلمي، إذا كانت الصحف السيارة [التي نشرت مقالاته] لا تصلح لمثل هذا .. ولم أُعْنَ بهذه الفصول كي يعنى الباحث المحقق ببحث علمي وأدبي قيم. (ص، ٦٥).

وإنما ... بعض الإفادة في (على هامش السيرة) إذ قال:

ورأيتني أقرأ السيرة فتمتلئ بها نفسي ويفيض بها قلبي وينطلق بها لساني، وإذا أنا أملي هذه الفصول وفصولًا أخرى أرجو أن تنشر بعد حين.

فليس في هذا الكتاب إذًا تكلف ولا تصنع ولا محاولة للإجادة، ولا اجتناب للتقصير، وإنما هو صورة يسيرة طبيعية صادقة لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ هذه الكتب.

فإذا استطاع هذا الكتاب أن يحبب إلى الشباب قراءة السيرة خاصة، وكتب الأدب القديم عامة والتماس المتاع الفني في صحفها الخصبة فأنا سعيد حقًا، وموفق حقا إلى أحب الأشياء إليَّ وآثرها عندي.

وإذا استطاع أن يلقي في نفوس الشباب حب الحياة العربية الأولى، ويلفتهم إلى أن في سذاجتها ويُسرها جمالا ليس أقل روعة ولا نفاذًا إلى القلوب من هذا الجمال الذي يجدونه في الحياة الحديثة المعقدة؛ فأنا سعيد موفق إلى بعض ما أريد.

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى، واتخاذها موضوعًا قيما خصبًا، لا للإنتاج العلمي في التاريخ والأدب الوصفي وحدهما، بل للإنتاج في الأدب الإنشائي الخالص، فأنا سعيد موفق إلى بعض ما أريد.

ثم إذا استطاع هذا الكتاب أن يلقي في نفوس الشباب أن القديم لا ينبغي أن يُهجر لكونه قديمًا، وإنما يُهجر القديم إذا برئ من النفع، فإن كان نافعًا فليس الناس أقلَّ حاجة إليه منهم إلى الجديد، فأنا سعيد موفق إلى بعض ما أريد. (على هامش السيرة ١: ط ي).

وجمع أقوال الرافضين في (من حديث الشعر والنثر) وقال: خصوم القديم وأنصار الحديث يزعمون أن هذا الشعر كانت له قيمة في عصره القديم، ويجب أن يُعدل عنه إلى أدب جديد يستمدونه من الأدب والحضارة الأوربية.

ويرد عليهم بأن الأدب العربي القديم ليس أدبًا ميتًا؛ لأنه لا يزال حيًا، ونحن في حاجة إلى أن نستمد من الأدب الأوربي الحديث أيضًا، وأن تكون الحياة دائمًا من صالح القديم والجديد (١٤ - ١٥).

ويزعمون أن الشعر العربي فقير بالنسبة للشعر الأجنبي، فليس فيه شعر قصصي ولا تمثيل كما كان عند اليونان.

وكان رده: هذا غريب، فلست واثقًا كل الثقة من أن الأدب العربي يخلو من

القصص، وأخشى أن يكونوا لم يحققوا بالضبط معنى الأدب القصصي، فالذين يقرأون الشعر الجاهلي والأموي - كشعر جرير والفرزدق والأخطل - يلاحظون أن مزايا كثيرة من خصائص الشعر القصصي موجودة فيه. وأهم ما يمتاز به الشعر القصصي أن شخصية الشاعر تفنى، وان يكون الشعر مرآة لحياة الجماعة، وأنا أستطيع أن أؤكد أنا لا نعرف شيئًا يصور الأمة أصدق تصويرًا، ويضطرنا أن نلمسها بأيدينا كالشعر العربي. (١٥ - ١٦).

وفي تصويره لبعض أبطال قصصه جعلهم يهوون التراث واستعراضه على من يتصلون به، مما رفع من أقدارهم لديهم. قال عن ياسر بن عامر الصحابي: وكانت أحاديث ياسر مختلفة أشد الاختلاف، تُروع بغرابتها وطرافتها وإثارتها الشوق إلى الاستزادة والرغبة في الاستطلاع. فقد كان ياسر لا ينفك يروي غرائب الأجناد وطرائف الأحداث عن موطنه ذلك البعيد في تهامة اليمن ... ولم يكن أحد أعلم من ياسر بمناقب قريش ومثالبها. ولم يكن أحد أشد منه تعلقًا بالتحدث عن سادة قريش وقادتها ... وكان ياسر إذا أخذ في الحديث عن قريش أمعن فيه واستهوى أفئدة سامعيه. (الوعد الحق ٢٢).

وفي كتاب «خصام» نعى د. طه التراث والأدب الحديث معًا، وصرح أن القارئ الحديث يبحث عن السهولة في الكتب والمجلات والصحف، والموضوع الذي يحتاج كاتبه إلى البحث الطويل عسير على الكاتب والقارئ معًا. وتخيُّر الألفاظ والتأنق فيها يكلفهما ما لا يحبان أن يتكلفا. وطلب الرحمة لأيام كانت الصحف فيها تتنافس أيها يكون أشد عناية بالأدب، وتتبعًا للموضوعات التي يفرغ لها القراء فيستمتعون بها وينقدونها ويعلقون كتابة عليها.

وختم بتصريح دال له: عفا الله عن مصر، ما أشد إهمالها العقل والقلب والذوق. وما أشد تقصيرها في ذات الأدب والفن والعلم. (خصام ٥- ٨).

احتج رافضو التراث بمشقته وغربته عنهم. صور د. طه حوارًا دار بينه وبين أحد الرافضين، وذكر أنه قال: إنكم تشقون علينا حين تكلفوننا قراءة شعركم القديم هذا، وتعيبوننا بالإعراض والتقصير في درسه وحفظه وتذوقه؛ لأنكم تنكرون الزمن وتحسبون أننا نعيش الآن في القرن الأول قبل الهجرة أو بعدها، نستطيع أن نأتي من الأمر ما كان أهل ذلك الزمان يأتونه، وأن نحس كما كانوا يحسون، ونفهم - من أجل ذلك - ونذوق ما كانوا يقولون.

وكيف يستقيم لكم درس الأدب إذا لم تقيموه على إتقان العلم بالتاريخ، إن حياتنا غير حياة هؤلاء الناس، وإن الصلة قد انقطعت أو كادت بينهم وبيننا، لا سيما بعد أن أقبل العصر الحديث، وحمل إلينا الحضارة الحديثة، وباعد بيننا وبين القدماء، وجعل الأساليب بيننا وبين المحدثين من أهل الغرب أدنى من الأساليب بيننا وبين القدماء من أهل نجد والحجاز، إنكم لتكلفون أنفسكم وتكلفوننا ضروبًا من الجهد العنيف في غير طائل. ولو أنكم تقدرون الوقت والجهد لوضعتم شعركم القديم هذا حيث أرادت الحياة. فقصرتم درسه وفهمه على العلماء الإخصائيين يبتغون لذتهم الخاصة وما يسمونه خدمة العلم وإحياء التاريخ، ولكن رفقًا بالشباب، لا تكلفوهم بما لا يطيقون. لا تفرضوا شعركم القديم على الطلاب والتلاميذ، فليس هذا الشعر منهم، وليسوا هم من هذا الشعر في شيء. (حديث الأربعاء ٩ - ١٠).

وذكر أن الانصراف عن الشعر القديم أصبح علة متفاقمة، تؤذي وليس في الشفاء منها أمل، ومع أن الجهود التي بذلت في هذا العصر الحديث لإحياء الأدب العربي القديم لا بأس بها، يجب أن نعترف بأنها لم تغن عنه شيئًا؛ لأن الحضارة الحديثة تملك من الوسائل ما لا يملكه الأدب القديم، وتسعى إلينا وتبلغنا من كل وجه، وتلح علينا بإنتاج لا ينقطع، يغرينا باختلافه وسحره، ويصرفنا عن الأدب القديم. (حديث الأربعاء ١٢).

وصم د. طه من يزدرون الأدب العربي ويغضون منه بأنهم يجهلون هذا الأدب جهلًا منكرًا. وجاهر: ليس لمن جهل شيئًا أن يحكم عليه. (حديث الأربعاء ٨).

ووصم من يظنون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا خيرًا خالصًا، بأنهم لم يفهموها على وجهها، ولم يتعمقوا أسرارها ووقائعها، فكانت مصدر جمود وجهل، كما كان التعصب للقديم مصدر جمود وجهل أيضًا.

ورأى أنهم من ضحايا الحضارة الحديثة، فهي لا تنكر القديم ولا تصرف عنه - وإنما تحببه وتحث عليه؛ لأنها تقوم على أساس متين منه - ولولا القديم ما كان الحديث. وأن غير قليلين من أدباء الأوربيين الآن يحسنون من آداب القدماء ما لم يكن يحسنه القدماء أنفسهم.

وليس التجديد في إقامة القديم، وإنما في إحياء القديم، وأخذ ما يصلح منه للبقاء.

وخاطب من يعارضون التراث لأن فيه ما لا يقره التفكير العلمي العقلي، قال: أحب

أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء، وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل، وان هذه الأخبار إذا لم يطمئن إليها العقل، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي، فإن في قلوب الناس وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة، واستراحتهم إليها من جهة الحياة وعنائها، ما يحبب إليهم هذه الأخبار. (على هامش السيرة ١: ك).

ورأى د. طه أن الأدب القديم لم ينشأ ليبقى كما هو ثابتًا لا يتغير، ولا يلتمس الناس لذته إلا في نصوصه تقرأ وتحفظ. إنما الأدب الخصب حقًا هو الذي يلذك حين تقرأه؛ لأنه يقدم إليك ما يرضي عقلك وشعورك.

ويوحي إليك بما ليس في نصوصه ويعيرك من خصبه خصبًا، ومن ثروته ثروة، فينطقك كما أنطلق القدماء. ولا يستقر في قلبك حتى يتصور في صورة قلبك أو يصور قلبك في صورته. وإذا أنت تعيده على الناس، فتلقيه عليهم في شكل جديدة يلائم حياتهم التي يحيونها، وعواطفهم التي تثور في قلوبهم. وخواطرهم التي تضطرب في عقولهم.

هذا هو الأدب الحي، القادر على البقاء ومناهضة الأيام. أما الأدب الذي ينتهي أثره عند قراءته، فقد يكون له قيمته، ولكنه أدب موقوت، يموت حين ينتهي العصر الذي نشأ فيه.

الآداب الحية هي آداب العصور والبيئات والأجيال كلها، لا لأنها تعجب الناس على اختلاف العصور والبيئات فحسب، بل لأنها - مع ذلك - تلهم الناس، وتوحي إليهم، وتجعل منهم الشعراء والكتاب والمتصوفين في ألوان الفن على اختلافها. (على هامش السيرة).

وفي أدبنا العربي - على قوته الخاصة - قدرة على الإلهام ... فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تكتب مرة واحدة ... وألهمت السيرة النبوية الكتاب والشعراء في أكثر العصور والبلاد الإسلامية. فصوروها صورًا تتفاوت حظوظها من القوة والجمال الفني. وقل مثل ذلك في الغزوات والفتوح، والفتن التي أصابت العرب في عصورهم.

ولم يقف إلهام هذا التراث الأدبي العظيم عند مستخدمي اللغة العربية الفصحى، بل تتجاوزهم إلى جماعة من القصاص الشعبيين، وختم بقوله: ليس القدماء خالدين حقًا إذا لم يكن التماسهم إلا عند أنفسهم، وإنما يحيا القدماء ويخلدون حقًا إذا امتلأت

بصورهم وأعمالهم قلوب الأجيال مهما يبعد بهم الزمن، وكانوا كنوزًا يستثمرها الكتاب والشعراء. (على هامش السيرة ١: د - ح).

وقال: أحب أن يعلم الناس أني وسعت على نفسي في القصص، ومنحتها من الحرية في رؤية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به باسًا إلا حين تتصل الأخبار بشخص النبي أو بنحو من أنحاء الدين، فإني لم أبح لنفسي فيها حرية ولا سعة، وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين.

ولن يتعب الذين يريدون أن يردوا فصول هذا الكتاب إلى مصادره القديمة التي أخذ منها، فهي قليلة جدًا لا تكاد تتجاوز سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري، وليس في هذا الكتاب فصل إلا وهو يدور حول خبر ورد في كتاب من هذه الكتب، فإذا اتصل الخبر بشخص النبي فإني أرده إلى مصدره ليستطيع من شاء أن يرجع إليه، لا أحتمل في ذلك تبعة خاصة لأني لا أذهب فيه مذهبًا خاصًا إلا أن يكون تبسطًا في الشرح والتفسير واستنباط العبرة والوصول بها إلى قلوب الناس. (على هامش السيرة ١: ك - ل).

لا يشك أحد أن د. طه له لغته التي ينفرد عن غيره من أدباء عصره، فلا يكاد يستمع إليها المستمع أو يطالعها المطالع حتى يصرح في يقين: أنه أمام لغة طه حسين. ولست أريد أن أفصل الحديث عن هذه اللغة وخصائصها، وإنما أقصد إلى جانب واحد.

فأنا أرى أن هذه اللغة تراثية، تختار ألفاظها على هدى مقاييس قريبة من مقاييس أعلام الأدب القدماء ومن يحتذونهم من المحدثين، وفي الوقت نفسه لها بعدها عنها، ويحكم عباراته إحكامًا نفتقده عند أكثر المحدثين. وهذا ما أصفه بالتراثية.

وأضيف إليه ما يقتبسه من عبارات التراث، مثل قوله: قنعتُ من الغنيمة بالإياب. (دعاء الكروان ١٤١).

وقوله: قال أبو جهل وقد انتفخ سحره وورم أنفه وصعد الدم إلى وجهه، وجعلت عيناه تقدحان شررًا. (الوعد الحق ٣٣).

وقوله: قبل أن يرتد إليك طرفك ... الحديد لا يفله إلا الحديد ... إنما تريد أن تقترن بأقوى ملوك الجن قوة، وأشدهم أيدًا وأعظمهم بأسًا، وأبعدهم صوتًا (شهرة) ... يُسقط في أيديهم ... فيرى فتاة لا تلبث أن تملك عليه سمعه وبصره وقلبه وعقله جميعًا. (أحلام شهر زاد ٣٣ - ٣٥، ٤٥).

وقوله: أرهقنا هذا الفتى عُسرا. (شجرة البؤس ٨).

بل كثيرًا ما اعترف أنه يستمد أقواله من القدماء أو كما يقول الشاعر القديم. (مستقبل الثقافة ٨).

هنا يصل بنا التطواف إلى محطة لها أهميتها الخاصة، وتحتاج من القارئ إلى إنعام نظر وفكر ورحابة صدر وعلم، إذ لا يقتصر فيها على طه حسين، بل تتدافع فيها أمواج دينية وفكرية وسياسية، ربما وغيرها. أريد بهذا محطة التراث، الذي ... على نفسي وعلى القارئ بأن كل ما خلفه ... من سبقونا، و.... أنني أتحدث عن العربي وحده باعتباري، وأن ما أورده من معلومات دينية إسلامية فقط باعتبار أن أتباعه وأن ما أورده من آراء هي آرائي الخاصة التي تتفق وتختلف مع آراء غيري.

يجب عليَّ أن أعترف بوجود الجماهير الكبيرة التي اصطلح المفكرون المحدثون على تسميتهم بالأصوليين، ويرفض هؤلاء الفنون التشكيلية والتمثيلية جملة، ويصفونها بالمحرمات.

كما يجب أن أعترف بوجود جماهير منهم ترفض ما قد أسميه التشخيص، أريد ما يماثل أشخاص البشر والحيوانات والطيور.

فإذا أبعدنا عن هؤلاء وقصرنا النظر على التراث الأدبي العربي وحده، بعدنا عن كثير من المبادئ العامة، واقتربنا من التخصيص الذي ييسر الأمر شيئًا ما. حقا وُجد وما يزال يوجد من يرفضه جملة ويدعو إلى التخلص منه، فما موقف د. طه منه؟

يعرف كل متصل بالأدب العربي مدى إعجاب طه حسين به: شعره، ونثره، وبعدد من أعلامه: شعراء وكتاب. وأكتفي بإيراد شيء من أقواله فيما يأتي:

عرض د. طه للآداب الكبرى التي رأى أنها شغلت الناس، وعاشت عليها الإنسانية قديمًا، وما زالت تعيش عليها. وحصرها في الأدب اليوناني القديم، والأدب الروماني أو اللاتيني، والأدب الفارسي، والأدب العربي. واعترف بأنه لا يعرف عن الأدبين الهندي والصيني شيئًا. ثم أعلن:

الأدب العربي: شعره ونثره وفلسفته لا يمكن بحال من الأحوال أن يقل عن الآداب الأربعة القديمة. بل هو - من غير شك - متقدم على اللاتيني والفارسي. وإذا لم يكن بد من أن يكون له مناظر، وأن الأدب العربي ينحني له - مع شيء من الإجلال الذي تملؤه العزة - فهو الأدب اليوناني.

وأما الأدب اللاتيني فستـرون أنه يقوم على تقليد الأدب اليـوناني، فهـو ليس أدبًا مبتكرًا.

أما الأدب الفارسي فهناك أسطورة غربية جدًا قائمة على خطأ شنيع. زعموا أن الأدب العربي مدين بشيء كثير جدًا للأدب الفارسي، وأن العرب كانوا في العصر العباسي تلاميذ الفرس في كل شيء، كان الشعراء فرسًا، والعلماء فرسًا، ورجال البلاد فرسًا.

أما أنا فلست أنكر أن الفرس قد أثروا في الحياة العربية تأثيرًا شديدًا، ولكنه في كثير من الأحيان سيئ جدًا ... ولكني مضطر أن أعترف أننا حين نبحث عن الأدب الفارسي الذي أثر في الأدب العربي، لا نكاد نجد شيئًا ... وأنا أذهب إلى أبعد من هذا، فإنه إذا كانت أمة مدينة لأخرى في الأدب، فليست العربية هي المدينة، بل الأمة الفارسية هي المدينة للعربية.

إذن فبين هذه الآداب الأربعة ... التي شاعت في العصر القديم والقرون الوسطى، لا أكاد أعترف إلا بأن أولها اليوناني ثم يليه الأدب العربي.

ويكفي أن نلاحظ أن الأدب العربي هو الأدب الذي عاشت عليه كل الأمم العربية. وهو الأدب الذي حمل لواء العلم والعقل طوال القرون الوسطى.

ويكفي أن نلاحظ أن النهضة الأولى التي ظهرت في القرن الثاني عشر في أوربة إنما هي نتيجة لاتصال أوربة بالعرب. فأدبنا هو الذي أحيا العقل الأوربي.

فلو لم يكن للأدب العربي إلا أنه حمل لواء الأدب الإنساني والعقل الإنساني في عشرة قرون، لكان هذا كافيًا للاعتراف بأن هذا الأدب من الآداب التي تعتز بنفسها، وتستطيع أن تثبت لصروف الزمان. (من حديث ١٧ - ٢٠).

وكرر هذه الأقوال في كتاب (خصام ونقد)، فقال: فلو أنكم ذهبتم توازنون بين العرب وبين الهنود والفرس والمصريين القدماء، لما كان من حقكم أن تقدموا هذا الأمم في الأدب على الأمة العربية بحال من الأحوال؛ لأننا لا نكاد نعرف من آداب هذه الأمم في تاريخها القديم شيئًا يقاس إلى ما بين أيدينا من الأدب العربي. فإلى أن يكشف أدب هذه الأمة. إن كان لها أدب أكثر من هذا الذي نعرفه، يجب أن نؤمن للعرب بالتفوق عليها في الشعر والنثر جميعًا ...

فإذا أردت أن توازن بين العرب والرومان، فأظنك توافقني على أن الأدب العربي

الخالص أرقى جدًا من الأدب الروماني الخالص، أي أن الأدب الروماني إنما ارتقي حقا حين أثر فيه الأدب اليوناني. فالرومان تلاميذ اليونان في الأدب والفن والفلسفة. والعرب يشبهونهم في ذلك. ولكن العرب كان لهم أدب ممتاز قبل أن يتأثروا بالحضارة اليونانية. ولم يكن للرومان من هذا الأدب الروماني الممتاز الخالص حظ يذكر.

لم يبق إذا إلا أدب اليونان، هو الذي يمكن أن يقال فيه: إنه متفوق على الأدب العربي حقًا. (٩٧).